الجزء الاول غرة المحرم ١٣٧٦ . المجلد الرابع والعشرون

٢١-٩-١٩٥٦

رأى الإسلام فى القتال

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

هذه إحدى « الثلاثيات » القرآنية .

وأعنى بتلك « الثلاثيات » طرازاً خاصاً من الأحكام ، يصدرها القرآن فى ثلاثة ألوان مختلفة من أساليب البيان : أسلوب « الإثبات » المجمل تارة ، و « النفى » المجمل تارة ، و « الإثبات والنفى » جميعاً تارة أخرى ؛ مفصلا فى هذا الوضع الأخير مطالع الحكم ومقاطعه ، ومحدِّدا فيه منازل التشريع ومنازعه ؛ مبيناً بذلك أنه ، حين يثبت مجملا وحين ينفى مجملا ، إنما يقضى فى شأنين مختلفين ، فيقرر فى كل شأن حكمه العدل ، ويقول فى كل مقام قوله الفصل .

ليس أخطر على الباحث فى الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة ؛ لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم .. حتى إذا سعى فى الصلح بينها برأيه لم يأمن على نفسه الهوى والزلل فى تأويلها . وهذا شأن اتباع المتشابه الذى نهى الله عنه .

وإنما يستبين موقف الإسلام واضحاً جلياً فى هذا الضرب من المسائل ، حين يلتمس حلها فى تلك الآيات الجامعات ، التى تلتقى فيها الأطراف على قدر ، والتى يبرز بها التشريع الإسلامى فى وحدة لا تنقسم ، وعروة لا تنفصم . تلك هى الآيات المحكمات ، وهن أم الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذاً فى وسطه لا فى طرفيـــه ، وروحه فى قلبه لا فى جناحيه . وسنريك الآن : أين الأطراف ، وأين الأوساط فى موضوع حديثنا .

° ° °

فانظر ها هنا ، فى أقصى الجانب الأيمن !

أليس يبرز الإسلام أمامك فى شعاب « مكة » ووديانها رافعاً راية السلام بيضاء نقية لا شية فيها ؟ أليس يبدو نبى الإسلام باسطاً جناحى رأفة ورحمة يفىء إلى ظلهما الوارف أنصـــاره وأعداؤه على السواء ؟ ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدِّد مهمة حامله ؟ فإذا هى هداية وإرشاد ، وموعظة وتذكير ، وإنذار وتبشير . ويجمع ذلك كله فى كلمة واحدة : « بلاغ » .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » « وما أنت عليهم بجبار » « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » « فان تولوا فانما عليك البلاغ » . . .

وزد ما شئت من سماحة وكرم ، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا انتقام ، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام . . . الإسلام إذاً هو رسالة السلام .

Scanned with CamScanner

ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر !

ألست تسمع من قِبَل « المدينة » صيحات النفير إلى النزال ، وقعقعة السلاح فى ميادين القتال ؟ أو لست ترى هنالك أشلاء تتناثر ، وأطرافا تتطاير ، وأعناقا تدق ، ودماء تسفك ، وأرواحا تزهق ، وأسرى يشد وثاقهم ، وشهداء يهنأون بنبيل تضحياتهم،ويبشرون بعظيم أجورهم؟

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون فى سبيل الله فيَـقتلون ويُقتلون » « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »

الحرب إذاً شريعة إسلامية ، وفريضة محمدية . بل هى أعظم من ذلك ؛ إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا » « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

يا لله ! ما أبعد الشقة ، وأشد المفارقة ! . . . أمن السلام الأبيض الناصع ، الرحيم المتواضع ، إلى الثورة الحمراء القانية،والحرب الفاتكة المهلكة ؟

تلك هى المشكلة التى فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها . وما أكثر الفروض ، وما أبعد تشعب الظنون ، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان ! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف فى محراب العلم وهو لمـّا يفق من نشوة نزعاته وعصبياته ، ولمـا يتجرد من سلطان عقائده وعوائده ! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأى ، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه ، أو أكثر تملقا لشعور قومه ، ثم يرسلها فى الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ . وما هى من العلم ولا من التاريخ فى شىء .

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل فى معالجتهم لهذه القضية :

أكان محمد متعطشا للدماء بفطرته ، ولم يمنعه من سفكها إذ كان فى « مكة » إلا أنه كان من الأعوان فى قلة ، ولم يكن أعوانه فى عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين ؛ فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه اليها العجز وفقد النصير حتى إذا واتته الفرصة فى موطنه الجديد اهتبلها ، وغمس يده فى الدماء إشباعا لغريزة الثأر والتشفى ؟

أم كان فى هذا الموقف الحربى متحركا بحركة قسرية لا يستمليها من مَرارة قلبه ، ولكنه دفع اليها دفعا ، وكان فيها تابعا لا متبوعا ؟ ذلك أنه وجد نفسه فى قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب ؛ فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى فى تيارهم .

Scanned with CamScanner

وهل أنا إلا من غزية ؟ إن غوت
غويت ؛ وإن ترشد غزية أرشد

لقد قلبوا وجوه الرأى وذهبوا فيها كل مذهب؛ ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقا خلبا، وسرابا خادعا، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. نعم لقد اصطدموا بحقائق التاريخ فى كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالا بعيداً فى كل مثل ضربوه.

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد فى مختلف أطواره: فى شبابه وكهولته، فى بأسائه ونعمائه، حتى فى أوج سلطانه، شهدوا بأن محمداً لم يكن يوماً ما فظ الطبع، ولا غليظ القلب، ولا خشن العشرة، ولا عاتى الحكم، ولا حامل ضغن على صديق أو عدو. ولئن كانت فى طباعه نزعة عاتبه الوحى فيها عتاباً بلغ حد اللوم والتثريب، لقد كانت تلك، على العكس، نزعته للصفح عن أعدائه، ومجازاتهم بالذنب غفرانا، وبالسوء إحسانا. وإن شواهد سيرته العطرة فى هذا كله لأشهر من أن ينبه عليها، وأكثر من أن يعد بعضها. ناهيك بمنه بالحياة على قريش وهم فى قبضته، بعد ما تآمروا على قتله.

وذلك أن الذين درسوا حياة محمد شهدوا فى الوقت نفسه بأنه لم يكن يوماً ما إمعة فى رأيه، ولا رخواً فى حكمه؛ وأنه لم يعرف عن أمة فى التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له: طاعة لا يمليها سوط ولا صولجان، ولكن يبعثها الحب والمهابة والثقة والإيمان؛ وأنهم بلغوا فيها إلى حدّ تفديته بأهليهم وآبائهم وأبنائهم وأنفسهم.

وكذلك شهد التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار لم يكن سبباً فى تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف، ومن المسالمة إلى المقاومة، على الرغم من وضوح حقه فى هذا التحول وتمكنه منه؛ فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته اليهم، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته. فلو أنه فكر فى الثأر لرمى بهم فى وجه عدوّه من أول يوم، ولكانوا أطوع له من بنانه؛ ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل فى أثنائهما شغلا مستغرقا بشعائر دينه، وشؤون قومه، وكان كل شىء فى سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضى بحسناته وسيئاته، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة: فهاهوذا قد استبدل داراً بدار، وأهلا بأهل؛ بل لقد استبدل شعاراً بشعار، وقبلة بقبلة: إذ أصبح يولى وجهه فى الصلاة شطر بيت المقدس بعد أن كان يستقبل الكعبة. وجملة القول: إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثاً فجائيا حقا، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته فى قومه.

* * *

هكذا فشل كتاب الغرب فى محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد بأسباب وعوامل التمسوها فى المعسكر الإسلامى.

وكان الإنصاف العلمى يقضى عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك فى الجانب الآخر؛ فلم يفعلوا. ولو أنهم

Scanned with CamScanner

طرقوا هذا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب فى مهدها ومولدها.

فالواقع أن أول حربٍ فى الإسلام لم يوقدها المسلمون، بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها، وأطاروا شررها. لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل كانوا هم معلنيها عمليا، والمتسببين فيها من طريق مباشر؛ وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدِّى، وردُّوا التعدِّى.

لا تعجل أيها القارىء علىَّ ردًّا وإنكاراً، ولا تنغض رأسك إلىَّ دهشاً وعجباً؛ فإنى أعرف أنك تقرأ فى كتب التاريخ كلها أن أصحاب الرسول هم الذين أخذوا يتعقبون عير قريش وهى آمنة مطمئنة فى قفولها من الشام إلى الحجاز. أفلا يكونون إذاً هم البادئين بالمناوشة ...؟ ألا فليعلم القارىء الكريم أن هذا الذى سطرته كتب التاريخ إنما هو الحلقة الثانية من قصة هذه الحرب، وأن الحلقة الأولى ظلت صفحة منسية منعزلة، لم تأخذ مكانها فى سلسلة السرد التاريخى لهذه الفترة من الزمان، وأن مؤرخى العرب ومؤرخى الغرب كانوا سواء فى السكوت عنها: فحق عليك أن ترد هذه اللبنة المفقودة إلى مكانها من البنيان. وإليك جلية الخبر!

لقد بدأت قريش بعد هجرة النبى وأصحابه تغير أسلوب معاملتها للمسلمين المستوطنين فى «مكة»، وهم أولئك الذين لم يجدوا سبيلا للحاق بإخوانهم المهاجرين. فبعد أن كانت حوادث عدوانها عليهم قبل الهجرة حوادث فردية، متفرقة، وكان يلطف من حدتها فى غالب الأمر مقام الرسول وعظماء أصحابه بين ظهرانيهم، أخذت حين خلا لها الجو تهاجم جموعهم، وتوالى التنكيل بهم، وهى آمنة أن تلاقى لهم ولياً حميما تخشى غضبه، أو يلاقيها شفيع متوسل تستحيى أن ترد سعيه. وما زال طغيانها عليهم يزداد يوماً بعد يوم، حتى عيل صبرهم، وطفح كيل بلائهم، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين، فى صرخات عالية، تسمع دويها فى القرآن الكريم.. وهنالك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال: «وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك ولياً، واجعل لنا من لدنك نصيرا».

لم تكن الغزوة الأولى إذاً حملة تحرش وبدء بالعدوان، كما زعم الجاهلون، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع. ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم، كما قد يظن بادىء الرأى؛ ولو فعلوا لكان حقا لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية، ولكنه حق مشروع فحسب، وكان من السائغ التنازل عنه. كلا، لم تكن هذا ولا ذاك، ولكنها كانت عملا أعلى من ذلك كله وأسمى: لقد كانت قياما بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة، واجب نجدة المظلوم، وإغاثة الملهوف. فهى إذاً صفحة فخار جديرة أن تسجل فى أعلى

Scanned with CamScanner

مكان من ديوان التضحية والإيثار ، وليست عملا عاديا يتطلب التبرير أو الاعتذار .

* * *

والآن وقد صححنا الوضع فى هذا الحادث التاريخى الذى ضلت به أفهام ، وزلت فيه أقلام ، نعود إلى سياق الحديث عن المبادىء العامة فنقول : إن أمثال هذه الضلات والزلات فى تحديد موقف الإسلام من الحروب مردها كما أسلفنا إلى تلك النظرات الجزئية الجانبية فى نصوص التشريع ، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة . ولا ريب فى أن المقارنة بين الدعوة إلى السلام فى السور المكية ، وبين التحريض على القتال فى آيات من التشريع المدنى ، وهو آخر دورى التشريع الإسلامى ، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة ، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية ، وأنها تمثل انقلابا نهائيا محيت به آية السلام فى الإسلام . وإنه لمن العجيب والمؤسف حقاً أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم ؛ حتى إن بعض كبار المستشرقين [1] ، الذين عاشوا بيننا ، ودرسوا لغتنا ، وتولوا إدارات فنية فى دورنا العربية ، كتبوا فى الموسوعات الأوروبية الحديثة فصولا مطولة عن الإسلام قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة ؛ وكانت زلتهم كثيرهم أنهم نظروا فى التشريع القرآنى إلى طرفى خطيه المنفرجين ، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان .

وها نحن أولاء ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط الذى كان وجوده فى القرآن حكمة بالغة ، وحجة دامغة ، تنقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون ، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات ؛ فإنه متى ظهر النص بطل القياس ، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس .

أجل إن القرآن الحكيم لم يكتف فى تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم فى ظروف وملابسات عادية توائمه ، ويأمر بالقتال فى ظروف وملابسات استثنائية تحتمه ، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك ؛ إذ كان واقع الحال فى كلا المقامين تفسيراً شافياً لموقع كل تشريع ، وتحديداً كافياً لمجال تطبيقه ، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد فى تحديد مقاصده على

---

(١) اقرأ البحث الذى كتبه المسيو فييت ، المدير السابق لدار الآثار العربية ، عن (الديانة الاسلامية) ونشره فى موسوعة « التاريخ العام للديانات » باللغة الفرنسية .

Gaston Wist, La Religion Islamique. in Histoire générale des Religions, PP. 347, 359-360 Quillet, Paris 1948.

ففى هذا البحث يقرر المؤلف أن فكرة الشيخ محمد عبده فى قصر الحروب الاسلامية على الدفاع فكرة عصرية تمثل تطورا حديثا =

= فى وجهة نظر المسلمين ، وأن النصوص تدل على عكس هذه النظرية ، ويستشهد على رأيه بآية القتال : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . فالمؤلف كما ترى يتمسك بآية من آيات الأطراف ، نظرة عن الآيات الجامعة التى سنشير إليها . على أنه قد أخطأ فى فهم الآية التى أوردها نفسها . ولو قرأ آخرها لتبين له أنها فى التقاء الجيوش فى الحروب « حتى تضع الحرب أوزارها » ، وأنها فى حرب الدفاع والانتصاف « ولو يشاء الله لانتصر منهم » .

ظروف واقعية فى عصر نزوله، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أعداؤه بنفسه فى نص صريح يضع كل تشريع فى موضعه، ويكون مرجعاً للناس على مر العصور والأجيال، ولاسيما فى قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء.

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه فى آيات جامعات، استبان بها أن الحرب ليست هى القاعدة، وإنما هى استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المساح على دعوته السامية، وأنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها؛ وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خطوة، ولا تستأخر خطوة:

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين. فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم »، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها »، « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا. فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً »، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم؛ إن الله يحب المقسطين، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ».

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية: « لا إكراه فى الدين »، « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ ».

ومنع حروب التشفى والانتقام للإساءات الأدبية: « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ».

وأنكر حروب التخريب والتدمير، وحروب الفتح والتوسع والاستعلاء: « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ».

واستنكر حروب التنافس بين الأمم فى مجال الضخامة والفخامة: « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ».

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحيف، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم؟ كلا: إن الإسلام دين إحسان ولكنه إحسان لا يناقض العدل، ولا يشجع الإجرام، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به؛ إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين. فهو دين عدل وإحسان معا؛ وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما. ولقد علمنا كيف ننزل بالحكمة كلا المبدأين فى منزلته، وحذرنا أن نضع واحداً منهما فى موضع صاحبه؛

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

محمد عبد الله دراز